في تاريخ الأدب المصري

أيدمر المحيوي

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

١

في عصر الدولة الأيوبية ، حينما كانت مصر زعيمة العالم الإسلامي ترفرف رايتها عليه ، وتقف في وجه المغيرين من الصليبيين وتصد هجماتهم ، وتدفع عن بيت المقدس وتذود عن حياضه ، وتحمي مدنية الشرق وتحوطها بسياج من المناعة والقوة ، وحينما كانت مصر تقف أمام أوربا مجتمعة ، يريد الأوربيون أن ينالوا منها منالاً ، فتأبى مصر أن ينكسر عودها أو تلين قناتها ، في ذلك العصر المليء بأسباب القوة ، المفعم بالعظمة المصرية والمجد المصري ، عاش الشاعر ايدمر المحيوي ، وربي في أرض مصر ، وفوق ثراها الخصب الندي ، وهو في أصله ينتسب الى الترك ، وإن كنا نجهل مايتعلق بأسرته وآله ، ويظهر أن التاريخ يجهل كذلك أسرته ، ولايذكر إلا أنه كان مملوكاً للأمير محيي الدين محمد بن محمد بن سعيد ، ثم أعتقه وأصبح حراً ، غير أنك إذا ذهبت تبحث عن السنة التي ولد فيها شاعرنا بله الشهر واليوم ، فانك غير مهتد الى شيء ، اللهم إلا أنه نشأ في عصر الدولة الأيوبية في منتصف القرن السابع الهجري ، نستنبط ذلك استنباطاً من قصائده التي مدح بها بعض سلاطين تلك الدولة ، وإذا أنت سألت التاريخ عن تربيته وتعليمه فانك سوف تجد غموضاً وإبهاماً لاتستبين خلالها إلا ماقد ينم عنه شعره من أنه درس اللغة ، واطلع على كثير من شعر الشعراء السابقين والمعاصرين ، فتثقف به وتأثره ، وعارضه أحياناً كما فعل ذلك مع ابن المعتز وابن النبيه ومسلم بن الوليد والمتنبي — وإلا ماقد يكون قد تثقف به من علوم اللغة العربية على يد ولي نعمته محيي الدين الذي نسب اليه والذي ظل أيدمر حافظاً لنعمته عليه يذكرها ، ويمدح سيده بغرر القصائد والموشحات .

٢

ليس لنا اليوم إلا أن نحدثك عن شعره الذي بين أيدينا ، وقبل أن نصفه لك أو نحدثك عنه حديثاً مسهباً ، يحسن بنا أن نخبرك أن ماسوف نتحدث عنه ليس بكل شعره ، بل هو مختار منه أبقته لنا الأيام ، ولسنا ندري إن كنا سنعثر على كل شعره أو أن الزمن بذلك ضنين ؟

أول مميزات شعر شاعرنا طول نفسه ، فقصائده أغلبها طويلة ، وقد يبلغ بها الطول الى أن تقارب المائتين ، وذلك إن دل فانما يدل على تمكن في اللغة ، واطلاع واسع يهيئه لأن يطيل كما يشاء حتى يوفي مابنفسه ويستوفيه . ثانيها الرقة وجمال الأسلوب مع متانته ، فلست تحس بالتنافر أو نبو الألفاظ أو أن تركيباً قلق في موضعه غير مستقر ، أو أنك تجد عسراً في فهمه ، أو تحتاج الى وقوف طويل حتى تستبين معناه ، فهو سلس سهل ، يسبق معناه الى قلبك قبل أن يسبق لفظه الى سمعك ، وانك لتجد نفسك مسوقاً الى قراءته متى بدأت أول القصيدة لطلاوته وعذوبته ، وهو يذكرنا بالبحتري حينما نجد الألفاظ له منقادة متخيرة ، مع السهولة والعذوبة . ولا يذهبن بك الوهم الى أنه لم يستعمل ألفاظاً غريبة في شعره ، فانه قد استعمل منها طائفة صالحة ، غير أنه كان حكيما في استخدامها ، حصيفاً في استعمالها ، لا يكثر منها ولا يضعها في غير موضعها . ثالثها استعمال بعض المحسنات البديعية من غير إكثار منها ولا تكلف ، بل إنها تجيء سلسة سهلة ، لاتذهب برواء القصيدة ، ولا تضيع من بهجتها ، ولقد استخدم في شعره التورية والجمع والجناس ، وحسن التعليل ، والطباق ، والاقتباس ، فهو يقول :

في جوده السفاح أم في عزمه المنصـــور ، أم في غيبه المأمون

ويقول :

قضت لك الشيمتان : العـدل والكرم … أن تخضع الأمتان العرب والعجم

وشرف الدين والدنيا بدولتك الـ … ـغراء ، والأشرفان العلم والعلم

ويقول :

ملك إذا امتدت يداه الى العدا … يوم الوغى تتقاصر الأعمار

ويقول :

هو الناهب الأرواح والواهب اللهى … وباني العلا والناسك المتورع

ويقول واصفاً حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لايفارقه … صب الفؤاد به متيمه

يدعو بصوت أستبين به … معنى الحنين ، ولست أفهمه

فيميل بي طرباً تمايله … ويهزني شوقاً ترنمه

يـــدى أمى الباكى وزنته   فى نوحه ، والدمع يكتمه
بحر الأمى إنسان مقلتـه   فجرى تخضب رجله دمه

ويقول من موشح :

أنت ياموسى رجائى آنسـا
نار جـــدواه فوافى قابسا
رحت فى حضرة قدس جائسا

فى طوى السؤدد ، فاخلع نعلكا   وادعه يأت بكبرى يوشـع

وكان أكثر ماأتى به فى شعره حسن التعليل ، على أن كل المحسنات التى أتى بها قليلة ، فهو غير مغرم بها ، ولاملزم نفسه كغيره السير على منهاجها .

٣

شعر المحيوى ينضوى تحت لواء واحد وفن واحد من فنون الشعر الغنائى ، هو المدح ، فهو الغرض الأول فى شعره ، يقصد اليــه قصداً ويلم بغيره عرضاً من غير قصد ، يبدأ به قصــيدة المدح أو يختم به الموشح ، وكان ماأتى به عرضاً يدخل فى الوصف أو فى الغزل ، ولنقف وقفات قصيرة لدى كل غرض من تلك الأغراض التى طرقها واصفين ودارسين .

أول ماتلمســه فى شعره المدحى أنه قد خلا من الغزل فى أوله حينما يمدح سلطاناً من ســلاطين الدولة الأيوبية ، بينما هو يبدؤه بالغزل عندما يمدح ولى نعمته محيى الدين بن ســعيد أوغيره من الوزراء ، فأى شىء تستطيع استنباطه من تلك الملاحظة ؟ وعلى أى شىء تدل ؟ لقد قلبنا الأمر على وجوهه ، ثم خرجنا بنتيجة قد تكون قريبــة من الصواب : تلك هى أن هؤلاء السلاطين لم تكن عنايتهم موجهة للغوانى والحب والغرام حتى يأسرهم الحديث عن الحب ويسترعى انتباههم ، وإنما كان كل همهم موجهاً الى الحرب والقتال ، وقهر الأعداء ، ورد العادين من المغيرين على دولتهم ، فقد كانوا كما قال أيدمر فى أحدهم :

متفرغ للمجد ، لاهو من دد   يلهيــه عن كرم ولا منه دد
البيض من صنع القيون لدى الوغى   يطربنه ، لا البيض مما يولد
والأسمر الخطــار يبهج نفسه   ويسرها لا الأسمـــر المتأود

وإذا كانت عنايتهم متجهة نحو ميادين الحروب فماله يشغل نفسه بشىء لا يملك عليهم نفوسهم ، ولا يأسرها ؟ حقــاً لقد كانت لهم مواطن لهو ولذة ، ولـكنها لذة العظمة وأبهة الملك

كذلك يسترعى نظرك فى شعره كثرة مدحه لسلاطين هذا العصر بذبهم عن حياض الدين وحياطته بسياج من العزة والمهابة فهو يقول للملك الصالح :

ملك يلوذ الدين منه بمعقــل   أشب تعطاه سوره والخندق
فالدين بعــد تفرق متجمع   والكفر بعــد تجمع متفرق

ويقول له :

فاسلم لدين قد هديت إليه من   لايهتدى ، وجمعت مالا يجمع
وحميت حوذته ، فأصبح وهو فى   أيام دولتـك الأعز الأمنـع

ويقول للملك الكامل :

فالله يشهد أن دين محمــد   بمحمد ، وله الخليقة تشهد

ويقول له :

لولاه كان الدين سرحا ماله   راع ، وزندا ما عليــه سوار

وذلك نتيجة طبيعية لهذا العصر الذى صبغ بالصبغة الدينية وكان القتال يدور فيه باسم الدين وباسم الدفاع عن الدين ، فليكن الشعر كذلك مصبوغاً بهذه الصبغة ، مثنياً على السلاطين لأنهم خدموا الدين وقاموا على صيانته .

تلمس فى شعره المدحى كذلك قوة ملوك مصر فى هذا العصر حتى لـكثيراً مايسميهم ملوك الملوك وكثيراً ما تسمعه يقول لهم :

من ألقت الدنيا مقالد أمرها   بيديه وهو بها أحق وأليق
ذو صورة تنبيــك عنـه أنه   ملك الملوك الحق حين يحقق

إلى أن قال :

فجلست حيث جلست منه بزينه   شرفا فطاف بك الملوك وأحدقوا
كل يغض من المهابة طرفه   فتراه ، وهو لغير فكر يطرق
هيهات جزت مدى الملوك إلى مدى   رجم الظنون اليه لايتطرق

ويقول :

منح رآك الله أهــلا أن تقلـ   ـدها فقـــلدك الذى تتقلــد
ذكرت مفاخرها الملوك وخيرما   ذكرته منها أنها لك أعبـــد
ذكراك فيهم سجدة مسنونة   فلذا متى تذكر لديهم يسجدوا
فاذا هم نظروا إليـــك فأعين   حسرى ، وأفئدة تقوم وتقعد
ملك الملوك وخير من عقدت له التـ   ـيجان فى قدم الزمان وتعقــد

وإذا أنت علمت أن ملوك مصر فى ذلك الحين كانوا حقاً زعماء الملوك فى العالم ، وكانوا أكبر رؤوس تطأطىء لها هام الملوك ، وتنخلع من هولها قلوب الأعداء ؛ وإذا أنت علمت أن مصر فى تلك الأزمان كانت أكبر مملكة فى الشرق والغرب ، وأقوى دولة يقصــدها الأوربيون بجموعهم ، فلا ينالون منها إلا ماناله

الوعل من الصخرة ، وإذا أنت علمت أن الجيش المصرى هو الذى حمى الشرق وحفظه من الأجنبى الذى يريد أن يتحكم فيه وإذا أنت علمت أن الاسلام وحرية الأديان كانت تسهر عليهما مصر وملوك مصر ، ويحيطونهما بسياج الحفظ والمناعة ، إذا أنت علمت كل ذلك أيقنت أن هذا الذى مدح به هؤلاء الملوك لم يكن بالكذب ولا المغالى فيه ، وأمامك كتب التاريخ فاقرأها تعد مؤمناً بصدق ماقال فى قوة مصر وملوك مصر .

شعر شاعرنا المدحى يعطيك صورة عن بعض نواحى الحياة المصرية فى ذلك الحين ، فهو يحدثك عن النزاع الذى كان قائماً بين المصريين والصليبيين حينما وجه هؤلاء تيار حروبهم إلى مصر نفسها قلب العالم الاسلامى ؛ فأغاروا على دمياط ، ولكنهم فشلوا أيما فشل ، واستطاع المصريون أن يخلصوا دمياط من حوزتهم ويرجعوهم بخفى حنين ، وهو يحدثك عن هذه الجموع الكثيرة التى كانت أوربا تمد بها الجيش المحارب لدمياط ، والذى يريد الغلبة عليها ، قال أيدمر :

أيام قال الشرك بغياً للهدى | دمياط لى ، ولك الغداة الموعد
وأتى بما ملأ البسيطة كثرة | والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة | جف المياه بها ، وذاب الجلمد
كالسيل إلا أنه لا ينقضى | والليل إلا أنه يتوقد
وأتى بك الأسلام وحدك موقناً | أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما | بالنصر تشقى من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو مسربل | خزياً ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم : فمكلم | ومجدل ، ومشرد ، ومصفد

كما يحدثك عن هذا النزاع الذى كان قائماً حول جلق (دمشق) أتبقى فى حوزة المصريين ، أم يحكمها غير المصريين ، وكانت الغلبة غالباً فى جانب المصريين ، وهو حين يحدثك عن هذا الفتح يشعرك بما فى نفوس المصريين من حب لأن تبقى دمشق ضمن حدود مملكتهم ، وأن يخفق عليها علم الامبراطورية المصرية . حتى إنه حينما كان يأتى البشير بفتح دمشق يزين المصريون دورهم ، ويرفعون الأعلام على شرف الجدران تخفق كما تخفق قلوبهم بالفرح والسرور ، واستمع اليه يقول :

قد قلت إذ جاء بالفتح البشير به | الله أكبر هذا غاية الأمل
ترنح الدهر ، واهتزت معاطفه | وراح يسحب ذيل التيه والجذل
والأرض قد أخذت للناس زخرفها |
وازينت ، فهى فى حلى وفى حلل | مسرة فى قلوب الناس قد ظهرت
حتى على شرف الجدران والقلل . الخ

وهو يؤمن بأن دمشق سوف تنال الخير والسعادة ، وسوف تصبح فى دعة وأمن مادامت ضمن المملكة المصرية :

فلهن جلق أنها قد أصبحت | فى مستقر الملك ، لا تتحول
وأنا الضمين بأن سيبلى جلقاً | عما مضى من غمرها ما يقبل

ونختم حديثنا عن مدحه بتلك القطعة الصغيرة لتكون نموذجاً لبقية مدحه ، قال يمدح الملك الكامل :

الله جارك ، والورى أنصار | فانهض ، ونل بهما الذى تختار
خضعت لهيبتك الأقارب والعدا | وجرت بوفق مرادك الأقدار
ملك إذا امتدت يداه الى الظبا | يوم الوغى تتقاصر الأعمار
من وجهه قمر ينير ، وسخطه | قدر يسير ، وحدسه إبصار
وإذا القلوب تطايرت فى موطن | نزلت عليه سكينة ووقار
ملك له من بأسه وغنائه | حصن أشم ، وجحفل جرار
ملك يميل الى المكارم لا الدمى | وتهزه العلياء لا الأوتار
ملك تهيم به بنات قلوبنا | حباً ، وتعشق مجده الأشعار
لولاه كان الدين سرحا ماله | راع ، وزنداً ما عليه سوار

فأنت تحس حقاً بأنك تقرأ أسلوب البحترى وتحس جماله وعذوبته، مدحه لغير الملوك يبدأ بالغزل ، وهو وإن لم يكن مقصوداً لذاته لا بأس بجماله وعذوبته ، حتى لتتمنى حين تقرأ غزله أن لو كانت القصيدة كلها غزلية ، وإن كنا نؤكد أنه فى غزله مقلد آخذ معانى من سبقه من الشعراء ، واستمع اليه يقول من موشح :

قال لى العاذل لما نظرا
من غدا قلبى به مشتهرا :
أكذا تعشق ؟ ماذا بشرا ؟
حاش لله ؟ أراه ملكاً | مثل ذا فاعشق ، وإلا فدع
هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البدر تغيب ومحاكا | ما احتياج الناس للبدر معى ؟ !

فأنت لا شك تحس بالعذوبة فى ألفاظه وإن كان الكثير من معانيه مقتبساً ، وكم كان بودنا لو أطال الحديث فى الغزل أو لو قصد اليه قصداً وظل يروى لنا عاطفتنا الظامئة الى غزله .

(البقية فى العدد القادم) احمد احمد بدوى